المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن دينى أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع الإيمانى عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألاَّ يُكلِّم أحد الثلاثة[1] الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف فى السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ[2] قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا[3] وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ[4] ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة فى التخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١١) : « قال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يُسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردى ، وقال القشيرى : ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] » .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذى يغطى العقل ويذهب به ، وهى إما مأخوذة من خمرتُ الشىء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه فاختمر ، والخمر فى صنعها بوضع الخمير على العصير ويُترك حتى يخمر فتؤخذ منه الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ .. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف] أى : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز مرسل علاقته ما سيئول إليه . [القاموس القويم ١/٢٠٩] بتصرف .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥١٢) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويعزِّى الحزانى . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسَّع عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له » .

المعية التي دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هي معية ذات ، وقيل : إنهما الخبَّاز والساقي ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بطانة عزيز مصر في التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هي فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقي والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمِّ للعزيز(١) .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، غير آمن على غده ؛ ولذلك اتجها إليه في الأمر الذي يُهمهم :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين ؛ فواحد منهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثاني أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلٌّ منهما على حِدَة - يطلبان - تأويل الرؤييين المناميتيْنِ ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الأمر الذي رأياه .

---

(١) مما ذُكر في هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبَّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم لعلوه فدسُّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمَّاه جميعاً ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبي ٣٦١١/٤] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة . فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا رافق عملُه مقاييسَ الإحسان في ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون ، ونظروا إلى أيِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص - على سبيل المثال - لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أردتَ أن تعرف مقام الإحسان في مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلْباً .

والمثال الذي أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءاً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأمور - وقد اعتدل . وإذا أردتَ اعتدال الميزان في كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح في نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيَّق حرية الملايين كي لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذي يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذي جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحساني ؟ هل رأيتم حُسْنَ معاملتي لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختياري للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك في الآية التالية :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ[1] قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك، ولكن هناك أمور مَخْفية، وكأنه يُنمي فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أيّ طعام يُرزقانه قبل أن يأتي هذا الطعام[2].

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عنْدياته، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار.

وهما - السجينان - يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسناً الإيمان بالله.

ولذلك يتابع الحق سبحانه:

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف]

---

(١) الملة: الدين، حقاً كان أو باطلاً. فمن الحق قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠) ﴾ [البقرة]. وهي الدين الحق. ومن الباطل قوله: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. (٢٠) ﴾ [الكهف]. وهي ملة باطلة. [القاموس القويم ٢/٢٣٦].

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/٣٥١٢): قوله: ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ .. (٣٧) ﴾ [يوسف] يعني: لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما: ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ .. (٣٧) ﴾ [يوسف] لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكم. وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف، وبيّن أن الله خصه بهذا العلم؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله، يعني: دين الملك.

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هبات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى في إنسانٍ ما مَخِيلةً[1] خير فَلْيتمِّ هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكي يُطمِع العباد في تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك مِلَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً في النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ[2] وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

(١) إنه لمخيل للخير أي : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيّل عليه تخيُّلاً ، كلاهما : اختاره وتفرّس فيه الخير . وتخولت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أي : رأيت مخيلته . وتخيل الشيء له : تشبّه . وتخيّل له أنه كذا أي تشبّه وتخايل ، يقال : تخيلته فتخيَّل لي ، كما تقول تصورته فتصور ، وتبينته فتبين ، وتحققته فتحقق . [لسان العرب - مادة : خيل] .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذي في سننه (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٣٢ ، ٤١٦) ، والحاكم في مستدركه (٢/٣٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملَّة القوم الذين لا يعبدون الله حقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثوابا بالجنة وعذابا بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادى ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله . فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

فلو أن هناك آلهة غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئا لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعا بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله - هكذا أوضح يوسف عليه السلام - أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلِّغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف]

اعلم أن الأمر الذى أنت بصدده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شكْرَ إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين :

﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ[1] مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ[2] ﴿٣٩﴾ ﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم[3] ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشيء الذى يربط بين اثنين أو أكثر . إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذى جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

---

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شيء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له . وهو رَبُّ الأرباب . ورب كل شيء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبِّر والمربِّى والصاحب والقيِّم والمنعم . [لسان العرب ـ مادة : ربب] بتصرف .

(٢) قهره يقهره قهرا : غلبه وأذله . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى] . والقاهر : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام] أى : المسيطر عليهم . [القاموس القويم ٢/١٣٦] بتصرف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثُرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . [لسان العرب ـ مادة : صحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مُقدَّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكان يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكُنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديران كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذى أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض فى مقاييس الأشياء أن تُغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : فى قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِى ويُضخِّم العمل ، لكن فى الألوهية نجد الشرك يُضعف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبى السجن :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩) ﴾ [يوسف]

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطة قوة ونقاطَ ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليل نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَماً[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[3] وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ونلحظ أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه ، وهو تأويل الرُّؤْيَيَيْن ، وهو لو تكلم في المطلوب منه أولاً ؛ لانصرف ذهْن وانتباه كُلٍّ من السجينين إلى قضاء

---

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع ، وتشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه. [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) السَّلْم والسِّلْم : الأمان وعدم الحرب . ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ [البقرة] في الصلح والمهادنة والاستسلام : ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ .. (٩٠)﴾[النساء] سالموكم وخضعوا لكم واستسلموا لكم . وقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أي : ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد. [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

(٣) القيِّم: الثابت المستقيم الذي لا عوج فيه ، أو المقوِّم المعدِّل للأمور أو المهيمن المشرف عليها . ومن ذلك قوله : ﴿ دِيناً قِيَماً .. (١٦١)﴾ [الأنعام] أي : مستقيماً أو مقوِّماً لغيره من الأديان السابقة . [القاموس القويم ٢/ ١٤٣] .

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذى يدعو إليه هو الأمر الأبقى ، وهو الأمر العام الذى يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهري قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألانِ فيها ؛ وأراد أن يُصحِّح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إيثار لا أثرة[1] .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدِّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسمَّى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجيء صورة المسمى إلى الذِّهْن ؛ ولذلك نسمي المولود بعد ولادته باسم يُميِّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

---

(١) آثره عليه : فضَّله . وآثرت فلانًا على نفسي : من الإيثار . ويقال : قد أخذه بلا أثرة وبلا إثرة وبلا استئثار ، أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب ـ مادة : أثر] .

وإذا أُطلِق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمثل من الريف المصرى ؛ حين يتفاءل أب باسم « محمد » ؛ فيسمِّى كل أولاده بهذا الاسم . ولكنه يُميِّز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لمُسمَّى غير موجود ؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمَّى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة ؛ ليُسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة ؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

وكان يوسف يتساءل : «إذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مُسمَّى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمَّى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسمًّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، وينزل معهم المنهج الذى يوجز فى « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى وَصْف تلك الأسماء التى بلا مُسمَّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. ۝٤٠ ﴾ [يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. ۝٤٠ ﴾ [يوسف]

أى : إننى ـ والكلام ليوسف ـ إن قلتُ شيئاً فلأنِّى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۝٤٠ ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ،

ولكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم في أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام في تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ[1] ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقي سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ؛ وهذا يعني أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله في قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهي قدرة على فكِّ شَفْرة الحُلْم ، ويعطيها الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال :

﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

أنه سوف ينال العفو حَسْبَ ما أظهرته الرؤيا التي قالها ، وأما

---

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وسأله رأيه في مسألة فأفتاه ، فأجابه . قال تعالى : ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الصافات] . وقال : ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أي : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبي الرؤيين .

وهذا دليل على أن القاضي يجب أن يكون ذهنه مُنصبًّا على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذي سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يكوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضي لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا في قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ[2] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[3] وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

---

(١) تسور السور : تسلقه وعلاه . قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص] [القاموس القويم ١/٣٣٠]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد في كل شيء . قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف] أي : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٣) أكفلنيها : أي اجعلني كافلاً لها راعياً شئونها مالكاً لها . عزني في الخطاب : غلبني وقهرني . [القاموس القويم ٢/١٨٠، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ[1] رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفِّه ؛ وكان يريد أن يُصوِّر الظلم الذى وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذى ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق فى الحكم ؛ لأنه ذكر فى حيثية الحكم نعاج الذى أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذى أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذى وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهى أكبر أولاده : قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

---

(١) خر راكعاً : أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم ١/١٩٠].

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده ؛ فذهب إليها وقال لها : سلِّمي إليَّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شيء[1] من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجاري أنه إذا سرق أحدٌ شيئًا وتَمَّ ضبطه ؛ تحول من حرٍّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائدًا إلى بيته ؛ أعلنت العمة فقدان الشيء الذي أعطاه لها والدها إسحق ؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلَم - أي عبد - وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئًا يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقي يوسف مع عمته محرومًا من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمَّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن ؛ ويقول الرَّواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرِف في السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت[2] ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أي تأويل الرُّؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

---

(١) هذا الشيء هو مِنْطَقَة إسحاق فيما ذكره ابن كثير في تفسيره [٢/٤٨٦] والمنطقة : هي كل ما شد به الإنسان على وسطه . وقد انتطق : أي شد النطاق على وسطه . [لسان العرب - مادة : نطق] .

(٢) السمت : حسن القصد والمذهب في أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جَنْبة : السمت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذِيَّة . [لسان العرب - مادة : سمت] .

ولما دخل هذان الفتيانِ معه السجن ؛ تآلفا به وأحباه حبًا شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه ما من أحد أحبّني إلا دخل عليّ من محبته ضررٌ ، أحبتني عمّتي فدخل الضرر بسببها ، وأحبّني أبي فأوذيتُ بسببه ، وأحبّتني امرأة العزيز فكذلك .

أي : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جناه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ[2] فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والمقصود هنا هو السجين الذي رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذي فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته في صناعة الخمر لسيده .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره [٤/٣٥١١] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف لقد أحببتك حبا لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه ، وأحبتني سيدتي فنزل بي ما ترى .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى رأس الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ١/٢٥١] بتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ .. ﴾ [يوسف]

يعني أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ .. ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شيء بالبال ؛ وكان له بالبال صلة استقبال ، مثل أي قضية عرفتها من قبل ثم تركتها ، ونسيتها لفترة ، ثم تذكرتها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهي لا تظل في بؤرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشيء واحد ، فإن جاء شيء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد في بؤرة الشعور .

والمثل الذي أضربه دائماً هو إلقاء حجر في الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتي ما يُذكِّرك بما في حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذي كنت قد نسيتَه وتتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُستويين ؛ فهي تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه ناج :

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أي : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول ؛ شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسِّط الغير في مسألة ذِكْره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ..(٣٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعني أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذي يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ [يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُراداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعني من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حَدَّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ(١) وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ(٢) أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والأرض التي وقعتْ عليها ، وجَرَتْ فوقها تلك القصة هي مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكْتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية : عرفنا

(١) عجف. هزل فهو أعجف وهي عجفاء . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] هي الهَزْلَى التي لا لحم عليها ولا شحم ضُرِبت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خِصْب [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه. [راجع : تفسير القرطبي ٤/٣٥٢٠] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمُّونَ الهكسوس .

وكانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود مَلِك في مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ في القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعني أنها رُؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ (٤٣) ﴾ [يوسف]

أي : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة (عجاف) أي : الهزيلة ؛ كما يُقال عند العامة « جلدها على عضمها » ؛ فكيف تأكل العجاف السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ولم يَصِف الملك أيَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :

﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أي : انتقل من شاطىء إلى شاطىء ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوى في الرُّؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العِبْرة » ، وهي التجربة التي نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم في النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظْهره بالعبارة .

ومنه « العَبْرة » ، وهو الدَّمْعة التي تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح . والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤيا حين يَعْبُر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملأ الذين حول الملِك تفسيراً للرُّؤيا التي رآها في منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ(١) أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

---

(١) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف] أي : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة ، كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٤] .

و « الضِّغْث » هو حزمة من الحشائش مختلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل .

وهذا صِدْق من البطانة في ألاَّ يخبر أحدهم بشيء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذي يعلن جهله بأمر لسائله - ويكون قد علمه - يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب : فربما جعله يَثْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق في الفُتْيا : « مَنْ قال لا أدري فقد أفتى » ؛ لأنه حين يقول « لا أدري » ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ[1] بَعْدَ أُمَّةٍ[2] أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

وكان الذي نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردَّ الملأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مرَّ عليه في السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

(١) ادَّكر : أصلها اذتكر على وزن افتعل ، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً وأدغمت الدالان : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] [القاموس القويم ١/٢٤٤] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت ، وفُسِّر به قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف] . وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أَمَه » بالهاء ، والأَمَهُ : النسيان والغفلة أي تذكر بعد نسيان . [القاموس القويم ١/٣٤].

وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مَرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلها له يوسف ، قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤].